قانون الإيمان في العبادة الإنجيليَّة

القس أمير إسحق

بدايةً، نستطيع القول إنَّ الإنسان مخلوقٌ عاقلٌ حُرٌّ مستقلٌّ، وكائنٌ ليتورجيٌّ أيضًا. فهو مخلوق لديه الميل ليعبُد الله ويخدمه ويرضيه ويمجِّده، على المُستويَين الفرديّ والجماعيّ. وهو عاقلٌ وحُرٌّ ومُستقلٌّ ليكون ليتورجيًّا، أي مُنظَّمًا في عبادته، ومُنظِّمًا لها. لذلك، العلاقة قويَّة بين اللّيتورجيا والأنثروبولوجيا، لأنَّ حياة الإنسان ذات طابع ليتورجيّ دائم.

أمَّا العبادة الحقيقيَّة فهي التي تُقدَّم للإله الحقيقيّ وحده، الأمر الذي شدَّدت عليه أوَّل الوصايا: "للرَّبِّ إلهك تسجُد وإيَّاه وحده تعبُد". والعهد القديم يقدِّم برنامجها اللّيتورجيّ، أي العبادة بشكل مُنظَّم. وتأتي ليتورجيَّة العهد الجديد لتكون أسمى من كلِّ ما سبقها من ليتورجيَّات، بسبب الكشف الكامل عن شخصيَّة الله المعبود في شخص ابنه يسوع المسيح. من مُميزاتها تلاوة صلوات جماعيَّة مكتوبة إلى جوار الصَّلوات الحُرَّة الارتجاليَّة. قد يَظنّ بعضٌ أنَّ ترديد الصَّلوات المكتوبة يُقيِّد العلاقة مع الله، وكأنَّ الاستجابة الإلهيَّة مشروطة بألفاظٍ محدَّدة استُخدِمت في الماضي. لكن التَّمييز واجبٌ بين التِّكرار الجافّ وبين كتابة صلوات مُعاصرة تعبِّر بصِدقٍ عن شُكرِ وتسبيحِ واحتياجاتِ الكنيسة اليوم، وبين إعلان الإيمان، سواء في مُمارسة السِّرَّين –المعموديَّة والعشاء الرَّبانيّ– أو في تلاوة قانون الإيمان.

وأمَّا تلاوة قانون الإيمان –الذي كتبه آباء في الأجيال الأولى، والذي يُشدِّد على الإيمان المشترَك بين جميع المؤمنين، ويربط أعضاء الجسد الواحد معًا– فهي أحد أهمّ عناصر العبادة اللّيتورجيَّة، وهي الموضوع الأساس في هذا المقال، الذي سأتناول فيه، بنعمة الرَّبّ، ثلاثة محاور: تمييز وتعريف المُصطلح؛ الأساس الكتابيّ واللَّاهوتيّ؛ فلسفة تلاوة قانون الإيمان.

أوَّلًا: تمييز وتعريف المُصطلح

ما الفرق بين قانون الإيمان؛ وإقرار الإيمان؛ وشرح أصول الإيمان، وهي المفاهيم التي تُستعمَل كثيرًا في اللَّاهوت والعبادة المسيحيَّة؟ وما أهمّ قوانين الإيمان؟ هذه هي الفروق الدَّقيقة بينها:

1. قانون الإيمان: نصٌّ ثابتٌ مُختصَرٌ رَسميٌّ تُعلِنه الكنيسة تعبيرًا عن إيمانها المشترَك بين جميع المؤمنين، وغالبًا يُتلى في العبادة الجماعيَّة. طابعه ليتورجيّ، ويتميَّز بأنَّه يُركِّز على حقائق الإيمان المسيحي الأساس. مثل: قانون الإيمان الرَّسوليّ؛ وقانون الإيمان النِّيقاويّ–القسطنطينيّ.

2. إقرار الإيمان: هو وثيقة إيمانيَّة أشمَل وأطول نسبيًّا مِن قانون الإيمان. طابعه عقائديّ، ويُعبِّر عن الفكر اللَّاهوتي والعقائديّ لطائفة ما، فيقدِّم شرحًا منهجيًّا لمُعتقداتها. ويُستخدم في التَّعليم الكنسيّ؛ ورسامة الخدام وتنصيبهم؛ ويُميِّز بين عقائد الطَّوائف. يشمل مواضيع مثل: العهد؛ الكتاب المقدَّس؛ الأسرار/ الفرائض؛ الأخلاق؛ الكنيسة؛ السُّلطة... إلخ. ويتضمَّن ردودًا على هرطقات أو انحرافات ظهرَت زمن كتابته. مثل: إقرار الإيمان الوستمنستري؛ وإقرار إيمان أوغسبورغ.
3. شرح أصول الإيمان: هو شرحٌ تعليميّ وتربويّ للأسُس العقائديَّة المسيحيَّة تفصيلًا. ويأتي في صيغة سؤال وجواب، يأخذ الطَّابع التَّعليميّ المنهجيّ، وهو موجَّه غالبًا إلى المؤمنين حديثيّ الإيمان، لأنَّه تعليمٌ مبسَّط ومنظَّم للمبادئ الإيمانيَّة. يشرح عقائد مثل: مَن هو الله؟ ما معنى الفداء؟ لماذا نُصلِّي؟ ما هي الكنيسة؟ وهكذا يجمع بين التَّعليم الكتابيّ واللَّاهوت العمليّ. مثل: التَّعليم المختصَر لوستمنستر؛ التَّعليم الهايدلبرغي.

وهكذا نرى أنَّ طابع قانون الإيمان "ليتورجيّ"؛ وطابع إقرار الإيمان "عقائديّ"؛ وطابع شرح أصول الإيمان "تربويّ تعليميّ". الأوَّل مُختصَر؛ الثَّاني أطوَل نسبيًّا؛ والثَّالث مُفصَّل.

قانونا الإيمان: الرَّسولي والنِّيقاويّ–القسطنطينيّ

قانون الإيمان الرَّسولي هو أقدَم وأبسَط صيغة إيمانيَّة مسيحيَّة جامعة. يأتي في نحو 12 عبارة تركِّز على: أحداث حياة المسيح؛ والثَّالوث الأقدس؛ والكنيسة؛ والحياة الأبديَّة. كلّ عبارة فيه مُستمدَّة مُباشرةً من نصوص العهد الجديد. له مكانة خاصَّة في تاريخ الكنيسة، لأنَّه: نصٌّ إيمانيٌّ مُختصَر، ترجع جذوره إلى القرون المسيحيَّة الأولى. سُمِّي "الرَّسوليّ" لأنَّه يُلخِّص إيمان الرُّسل، لا لأنَّهم كتبوه. أمَّا قانون الإيمان النِّيقاويّ فقد صِيغَ أوَّلًا في مجمع نيقيَّة (325م.)، الذي انعقد لمواجهة هرطقة أريوس الذي أنكر أزليَّة وألوهيَّة المسيح. وكان يُستخدَم أساسًا في تعليم الموعوظين (خاصَّة الذين يستعدُّون للمعموديَّة)، وفي العبادة الجماعيَّة.

وأمَّا قانون الإيمان النِّيقاويّ–القسطنينيّ فهو أطول وأكثر تحديدًا لاهوتيًّا. هو الذي صِيغَ أوَّلًا في مجمع نيقيَّة، واستُكمِل في مجمع القسطنطينيَّة (381م.) بهدف مواجهة الهرطقات التي قلَّلت من ألوهيَّة الرُّوح القدس. وهو أطول وأكثر تفصيلًا من قانون الإيمان الرَّسوليّ. ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة: الآب الخالِق؛ الابن الفادي؛ الرُّوح القدس الرَّبّ المُحيي. وهو الأوسع انتشارًا في العبادة المسيحيَّة. ويمكننا القول إنَّ قرارات مجمع نيقيَّة كانت نقطة إنقاذ للإيمان الرَّسوليّ مِن تحريفٍ جوهريّ؛ وأعطَت الكنيسة صيغة واضحة للإيمان بالمسيح بوصفه إلهًا حقًّا من إلهٍ حقّ.

ثانيًا: الأساس الكتابيّ واللّاهوتيّ

هل هناك ما يدعَم فكرة وجود قانون إيمان كتابيًّا ولاهوتيًّا؟ مِن المهمّ لنا –نحن الإنجيليّين– أن نؤسِّس مُعتقداتنا وعبادتنا على أسُس كتابيَّة ولاهوتيَّة واضحة. هناك سندٌ كتابيٌّ واضحٌ وقويٌّ للفلسفة اللّاهوتيَّة والرُّوحيَّة الكامنة وراء وجود قانون إيمان، ومِن ثَمَّ تلاوته في العبادة الجهوريَّة. حتَّى وإن لم يُذكَر "قانون إيمان" بالاسم في الكتاب المقدَّس، فإنّ مبدأ إعلان الإيمان المشترَك، والاعتراف العلنيّ، والتَّعليم العقائديّ الجماعيّ، كلّها متأصِّلة في الكتاب المقدَّس. وهذه أبرز الأسُس الكتابيَّة:

1. مبدأ الاعتراف العَلنيّ بالإيمان

(رومية 10: 9): "لأنَّك إن اعترفتَ بفمك بالرَّبّ يسوع، وآمنتَ بقلبكَ أنَّ الله أقامَه من الأموات، خَلَصتَ". هذا هو جوهر قانون الإيمان: الإيمان القلبيّ والاعتراف العلنيّ، فرديًّا وجماعيًّا. فالاعتراف الفَمَويّ ليس اختيارًا، بل جزءٌ أصيلٌ من الإيمان الذي يخلِّص.

2. مبدأ الإيمان الواحد المشترك

(أفسُس 4: 4–6): "جسدٌ واحدٌ وروحٌ واحدٌ، كما دُعيتُم أيضًا في رجاء دعوتكم الواحد. ربٌّ واحدٌ إيمانٌ واحدٌ معموديَّةٌ واحدةٌ، إلهٌ وآبٌ واحدٌ للكلِّ". يبرز بولس هنا وحدة الإيمان باعتبارها ركيزةً أساس للجماعة، وهو ما تُعبِّر عنه الكنيسة عندما تتلو قانون الإيمان الواحد بصفتها جماعة واحدة.

3. مبدأ تسليم الإيمان الرَّسوليّ

(1كورنثوس 15: 1–4): "وأعرِّفكم أيُّها الإخوة بالإنجيل الذي بشَّرتكم به، أنَّ المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتُب، وأنَّه دُفن، وأنَّه قام في اليوم الثَّالث حسب الكتُب...". هذا النَّص يُعدُّ من أقدَم صِيَغ الإيمان المُبكِّرة في العهد الجديد، وكان يُتلى في الكنائس الأولى، ويُشبه قانون الإيمان في جوهره، الذي يعكس ذلك التَّسليم العقائديّ الرَّسوليّ.

4. مبدأ الاعتراف المشترَك في العبادة

(عبرانيّين 10: 23): "لنتمسَّك بإقرار الرَّجاء راسِخًا، لأنَّ الذي وعد هو أمينٌ". "إقرار الرَّجاء" تعبيرٌ آخَر عن الإيمان المعلَن بصوتِ الجماعة، وهو ما يُجسِّده قانون الإيمان.

5. مبدأ الاحتكام إلى معيار الإيمان المستقيم

(2تيموثاوس 1: 13): "تمسَّك بصورة الكلام الصَّحيح الذي سمعتَه مِنِّي، في الإيمان والمحبَّة التي في المسيح يسوع". يوصي بولس تيموثاوس هنا أن يحفَظ "صورة" التَّعليم الصَّحيح، وهي الصُّورة التي عبَّرت عنها الكنيسة لاحقًا بصِيَغ مثل قانون الإيمان.

6. مبدأ تسليم التَّعليم عَبر الأجيال

(2تيموثاوس 2: 2): "وما سمعتَه مِنِّي بشهودٍ كثيرين، أودِعهُ أناسًا أمَناء، يكونون أكْفاء أن يُعلِّموا آخَرين أيضًا". يُظهِر هذا النَّصّ أهمِّيَّة نقل التَّعليم الإيمانيّ مِن جيل إلى جيل، وهو ما يفعله قانون الإيمان بصورة مركَّزة ومُعلَنة.

7. مبدأ وحدة الاعتراف رغم التَّنوُّع

(1كورنثوس 12: 3): "وليس أحدٌ يقدِر أن يقول: يسوعُ رَبٌّ إلَّا بالرُّوح القدس". فتلاوة قانون الإيمان ليست مُجرَّد تكرارٍ ذِهنيّ، بل عملٌ روحيّ نُعلِنه بقيادة الرُّوح القدس للكنيسة.

أمثلة كتابيَّة لصِيَغ إيمانيَّة مُختَصرة

اعتراف بطرس: "أنتَ هو المسيح ابنُ الله الحيّ" (متَّى 16: 16)؛ اعتراف توما: "ربِّي وإلهي" (يوحنَّا 20: 28)؛ ترنيمة عقائديَّة لاهوتيَّة: "وبالإجماع، عظيمٌ هو سِرُّ التَّقوى: الله ظهر في الجسد؛ تبرَّر في الرُّوح؛ تراءى لملائكةٍ؛ كُرِزَ به بين الأمم؛ أومِنَ به في العالم؛ رُفِعَ في المجد" (1تيموثاوس 3: 16)؛ والنَّشيد المسيانيّ عن اتِّضاع المسيح وارتفاعه: "فليكُن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضًا: الذي إذ كان في صورةِ الله لم يحسِب خُلسةً أن يكون مُعادلًا لله، لكنَّه أخلى نفسه..." (فيلبِّي 2: 6-11).

إذن، وجود قانون إيمان وتلاوته في جماعة المؤمنين ليس مجرَّد اختراعٍ طقسيٍّ لاحِقٍ، بل استمرارٌ لما علَّمه الكتاب المقدَّس بوضوح عن: إعلان الإيمان؛ الاعتراف العَلَنيّ؛ التَّعليم المُشترَك؛ تسليم الإيمان؛ ووحدة جماعة المؤمنين حول الإيمان القويم.

ثالثًا: فلسفة تلاوة قانون الإيمان

بناءً على ما تقدَّم يبقى السُّؤال: "ما هي فلسفة تلاوة قانون الإيمان في العبادة الكنسيَّة وفوائده؟" سؤالٌ لاهوتيٌّ وليتورجيٌّ عميق، يرتبط بجوهر الهويَّة الكنسيَّة وتكوين جماعة المؤمنين وشهادتهم الإيمانيَّة. إنَّ قانون الإيمان

هو صوتُ الكنيسة الجماعيّ في إعلان إيمانها الرَّسوليّ. وتلاوته لا تُعدُّ طقسًا تقليديًّا، بل فِعلًا روحيًّا واعيًا يربط المؤمنين بإيمان الكنيسة الجامعة عبر الأجيال. تقوم فلسفة هذه الممارسة على هذه الفوائد:

1. هويَّة الكنيسة ووحدتها

تلاوة قانون الإيمان تربط الجماعة الكنسيَّة بـ"الإيمان المُسلَّم مرَّة للقدِّسين" (يهوذا 3). وتعبِّر عن وحدة الكنيسة الجامعة عبر العصور والطَّوائف، إذ يُتلى القانون ذاته (الرَّسولي، أو النِّيقاويّ–القسطنطينيّ) في كنائس مُتعدِّدة. فيُعلن جميع المؤمنين إيمانهم، وكأنَّهم يقولون: "نؤمن كما آمَن الآباء، ونُعلن إيماننا كما أعلنته الكنيسة في مجامعها الجامعة، وفي عصورها المختلفة، وبجميع طوائفنا".

2. الاشتراك الجماعيّ في الإيمان

لا يُتلى قانون الإيمان فرديًّا، بل جماعيًّا، ليدلّ على أنَّنا "نحن نؤمن" وليس فقط "أنا أؤمن". يعكس ذلك جماعيَّة الخلاص؛ ووحدة الجسد الواحد الذي فيه نُعبِّر معًا عن الإيمان الواحد المشترك. "لأنَّنا جميعنا بروحٍ واحد أيضًا اعتمَدنا إلى جسدٍ واحدٍ" (1كورنثوس 12: 13). وذلك لا يمنع أن يُردَّد فرديًّا وعائليًّا.

3. الاحتكام إلى معيار ثابت

يُشكِّل قانون الإيمان مَرجعيَّة كتابيَّة ولاهوتيَّة وإيمانيَّة مَوثوقة، ضدَّ البدَع والانحرافات متى ظهرَت. وبوصلة لاهوتيَّة ضدَّ الضَّبابيَّة الفكريَّة والنِّسبيَّة الرُّوحيَّة. فحين يتلوه المؤمنون، فإنَّهم يقولون: "هذا هو الإيمان الذي نحتَكِم إليه ونسير في نوره". وكلّ قانون إيمانٍ هو اختصارٌ لحِقبة طويلة من الصِّراع الفِكريّ واللَّاهوتيّ ضدَّ البدع والتَّشويش. لذلك، فتلاوته هي عمليَّة تذكيرٍ دائمٍ بمسؤوليَّتنا التي أشار إليها الرَّسول يهوذا: "أكتُب إليكم واعظًا أن تجتهدوا لأجل الإيمان المُسلَّم" (يهوذا 3).

4. الاحتفال بالإيمان

تلاوة قانون الإيمان هي بمثابة ترنيمةٍ لاهوتيَّةٍ احتفاليَّةٍ بحقائق الفداء والتَّجسُّد والقيامة. تُتلى غالبًا بعد العظة الكتابيَّة، كاستجابةٍ للإعلان الإلهيّ مِن الكلمة المقدَّسة وشرحها بالاستقامة. "نؤمن بإلهٍ واحدٍ..." ليست جُملة تعليميَّة فقط، بل نشيدٌ يُعلَن أمام السَّماء والأرض والجموع.

5. التَّربية والتَّنشئة الإيمانيَّة

التِّكرار الأسبوعيّ لقانون الإيمان يُرسِّخ العقيدة في الذِّهن والوجدان. فهو مدرسة لاهوتيَّة مُختصَرة يتعلَّم منها الكبار والصِّغار حقائق الإيمان الأساس. هو مادَّة مبادئ التَّعليم المسيحيّ، ويُعلِّم ما نؤمن به بترتيب منطقيّ: الله الآب؛ الابن؛ الرُّوح القدس؛ الكنيسة؛ والرَّجاء.

6. الاستعداد لخدمة العشاء الرَّبانيّ

بعض الكنائس، وعند مُمارسة سِرّ/ فريضة العشاء الرَّبانيّ، تبدأ بتلاوة قانون الإيمان، كإعلانِ إيمانٍ جماعيّ مشترَك، وإعدادٍ قلبيّ لكلِّ مؤمن، قبل الاشتراك في ذلك السِّرّ المقدَّس. وكأنّ المؤمنين يقولون: "لا يمكننا التَّقدُّم إلى مائدة الرَّبّ المقدَّسة والاشتراك معًا فيها، إلَّا ونحن ثابتون ومتأصِّلون في الإيمان المستقيم، ومشترِكون معًا فيه".

7. الشَّهادة والإعلان أمام العالم

تلاوة قانون الإيمان بصوتٍ عالٍ هي نوعٌ من الاعتراف العَلنيّ بالإيمان المسيحيّ، وخاصَّة في الاجتماعات العامَّة التي يحضرها مؤمنون وغير مؤمنين. هي وقفةٌ ضدَّ الشُّكوك الإيمانيَّة، والتي ما أكثرها اليوم، وإعلانٌ أنَّ الكنيسة لا تزال تحفَظ وديعة الإيمان الصَّحيح النَّقيّ. استنادًا إلى قول المسيح: "مَن يعترفُ بي قدَّام النَّاس أعترفُ أنا به قدَّام أبي الذي في السَّماوات" (متَّى 10: 32).

مِن ثمَّ، فإنَّ تلاوة قانون الإيمان، سواءٌ في العبادة العامَّة، أو عند مُمارسة العشاء الرَّبانيّ، هي أكثر من مجرَّد ترديد عقائديّ. إنَّها: إعلانُ انتماءٍ كنسيٍّ؛ ونشيدٌ جماعيّ؛ وشهادةٌ علنيَّةٌ؛ ومدرسةٌ إيمانيَّةٌ؛ وبوَّابةٌ للمائدة المقدَّسة. ففي كلِّ مرَّة نتلو فيها قانون الإيمان في الكنيسة، لا نُكرِّر كلماتٍ مَحفوظةً وحسب، بل نُعلِن انتماءنا لإيمان الكنيسة الجامعة، ونشهَد للحقّ الذي يُحرِّرنا.. والتِّكرار الأسبوعي يُنقَش في القلب؛ ويُحفَر في الذَّاكرة؛ ويَضبِط بوصلَتنا اللَّاهوتيَّة في عصر التَّشويش والتَّشكيك العقائديّ.

دعوة للتَّجاوب

(تمهيد للمُتعبِّدين لتلاوة قانون الإيمان، يتلوه الرَّاعي أو الخادم القائد):

"أيُّها الأحبَّاء، قانون الإيمان النِّيقاويّ ليس مجرَّد وثيقةٍ قديمةٍ تعود إلى القرن الرَّابع، بل هو صرخة حيَّة للكنيسة في كلِّ عصرٍ... ونحن الآن في حضرةِ الله الآب، وبشهادةِ الابن، وفي شركة الرُّوح القدس،

لنتمسَّك بإقرار الرَّجاء، لأنَّ الذي وعدنا بالإيمان والخلاص، هو أمينٌ.

ولنقِف الآن معًا، كما وقفَت الكنيسة مُنذ عصورها الأولى،

لنُعلِن إيماننا الواحد، الجامع، الرَّسولي،

الذي تسلَّمناه مِن الآباء، ونعيشه في الجسد الواحد،

وبه نشهد للحقِّ، ونترجَّى المجد، ونتهيَّأ للوليمة السَّماويَّة.

فلنَقِف بخشوعٍ، ولنُصْغِ بقلوبٍ مؤمِنة، ولنقُل معًا:"

(ثم يبدأ الشَّعب معًا):

"نؤمنُ بإلهٍ واحدٍ، الله الآب... إلخ".

(وفي الختام يردِّدون):

"أيُّها الرَّبُّ سيِّدُنا.. كما نطقَ الرُّسل قديمًا بإيمانهم،

وكما تمسَّكت كنيستك عبر العصور بالرَّجاء المُبارَك،

أعِنَّا نحن أيضًا أن نُعلِن إيمانَنا بكَ بثباتٍ وصِدقٍ،

لا بشفاهِنا فقط، بل بحياتنا أيضًا... آمين".

القس أمير إسحق